حياة أعظم الرسل

مُحَمَّدٌ تَمُوتُ أُمُّه

مُحَمَّدٌ تَمُوتُ أُمُّهُ

مَرَّت سَنَوَاتٌ يَا بُنَيَّ وَمُحمدٌ فِـى
بَيتِ حَلِيمَةَ . وَقد كَبِرَ جِسمُهُ ، وَظَهَرَ
ذَكَاؤُهُ النَّادِرُ . وَقَد حَفِظَهُ اللهُ قبلَ أَن
يُولَدَ ، وَبعدَ أَنْ وُلِدَ . وَأُعْجِبَ بِهِ إِعْجَابًا
كَثِيرًا كُلُّ مَن رَآهُ وَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ
اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الجَمِيلَةَ . وَحِينَمَا بَلَغَ مُحمدٌ
مِنَ العُمرِ خَمسَ سَنَوَاتٍ أَحْضَرَتهُ مُرَبِّيَتُهُ

حَلِيمَةُ ثَانِيَةً إِلَى أُمِّهِ آمِنَةَ . وَفِى بَيتِهَا كَانَ يَنتَظِرُهُ جَدُّهُ عَبدُ المُطَّلِبِ الَّذِى كَـانَ يُحِبُّهُ كُلَّ الحُبِّ . وَفَرِحَتِ الأُمُّ كُـلَّ الْفَرَحِ بِمَجِىءِ ابْنِهَا العَزِيزِ ، وَفَرِحَ الجَدُّ بِحَفِيدِهِ (ابْنِ ابْنِهِ) .

وَفِى هٰذِهِ المَرَّةِ لَمْ يَكُنْ مُحمدٌ طِفلاً رَضِيعًا حَتَّى تَضَعَهُ حَلِيمَةُ بَينَ ذِرَاعَيْهَا ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ طِفلاً فَائِقَ الذَّكَاءِ ، كَثِيـرَ النَّشَاطِ ، يَشتَرِكُ مَعَ الحَاضِرِينَ مَعَ جَدِّهِ فِى مُحَادَثَتِهِم وَكَلاَمِهِم وَأَفكَارِهِـم ،

وَيَذكُرُ — وَعُمرُهُ خَمْسُ سِنِينَ — آرَاءً سَلِيمَةً ، وَأَفكَارًا صَحِيحَةً ، كَأَنَّهُ رَجُلٌ عَالِمٌ فِى سِنِّ الأَرْبَعِينَ . فَعَقْلُهُ نَاضِجٌ ، يُفَكِّرُ وَهُوَ طِفلٌ تَفكِيرَ رَجُلٍ ذَكِـى .

وَهٰذِهِ نِعمَةٌ مِنَ اللهِ أَنعَمَ بِهَا عَلَيْهِ ؛ لِإِعدَادِهِ لِلرِّسَالَةِ الَّتِى اختَارَهُ لَهَا فِى المُستَقبَلِ .

تَحَدَّثَتْ آمِنَةُ مَعَ ابنِهَا وَهِىَ مُعجَبَةٌ بِهِ . وَتَحَدَّثَ الْجَدُّ مَعَ حَفِيدِهِ وَهُوَ فَخُورٌ بِهِ .

وَقَالَتْ آمِنَةُ لِجَدِّهِ : هَلْ كُنْتَ تَنتَظِرُ حَفِيدًا أَعظَمَ وَأَكْمَلَ مِن هٰذَا ؟ إِنَّكَ تَرَاهُ الآنَ وَهُوَ يمشِى وَيَجرِى ، وَكُلُّهُ نَشَاطٌ ، وَصِحَّتُهُ قَوِيَّةٌ ، وَأَخلاَقُهُ كَامِلَةٌ ، وَآدَابُهُ عَالِيَةٌ ، وَلُغَتُهُ فَصِيحَةٌ ، وَتَفكِيرُهُ صَائِبٌ .

وَقَد فَرِحَتِ الْأُمُّ وَالْجَدُّ كُلَّ الْفَرَحِ بِمُحَمَّدٍ . وَقَدَّمَا جَزِيلَ الشُّكْرِ لِحَلِيمَةَ ، لِعِنَايَتِهَا الْعَظِيمَةِ بِهِ . وَالْحَقُّ أَنَّ اللهَ قَد أَدَّبَهُ فَأَحسَنَ تَأْدِيبَهُ ، وَرَبَّاهُ فَأَحسَنَ

تَربِيَتَهُ . وَقد كَافَأَ عَبدُ الْمُطَّلِبِ حَليمَةَ مُكَافَأَةً ثَمِينَةً ، وَأَكرَمَهَا كُلَّ الإِكرَامِ .

رَجَعَتْ حَلِيمَةُ إِلَى بَيتِهَا وَهِيَ مَسرُورَةٌ . سَعِيدَةٌ لِتَوفيقِهَا فِي تَربِيَةِ مُحَمَّدٍ تَربِيَةً كَامِلَةً ، شَاعِرَةً بِالْأَلَمِ لِفِرَاقِهِ .

وَإِنَّ السَّنَوَاتِ الخَمسَ الَّتِي مَكَثَهَا مُحمدٌ فِي بَنِي سَعدٍ قَد أَثَّرَتْ فِي نَفسِهِ كُلَّ التَّأثِيرِ ، وَتَرَكَتْ أَثَرًا قَوِيًّا لاَ يُنْسَى . وَتَذَكَّرَ عَلَى الدَّوَامِ أُمَّهُ

مِنَ الـرَّضَاعِ الَّتِـى أَرْضَعَتْـهُ وَرَبَّتْـهُ ، وَعُنِيَتْ بِهِ كُلَّ العِنَايَةِ . وَقَدِ اعتَـادَت حَلِيمَةُ أَن تَزُورَ مُحَمَّدًا كُلَّمَا ذَهَبَت إِلَى مَكَّةَ ، فَيَحتَرِمَهَا كُلَّ الاِحتِرَامِ ، وَيَفْرُشَ لَهَا (عَبَاءَتَهُ) لِتَجلِسَ عَلَيهَا ، وَيُكرِمَهَا كُلَّ الإِكرَامِ . وَلَم يَنْسَ تَرْبِيَتَها لَـهُ . وَكَانَ يُسَاعِدُهَا وَيَعطِفُ عَلَيهَـا كُلَّمَـا جَاءَت إِلَيهِ بِمَكَّةَ .

وَذَاتَ مَرَّةٍ حَدَثَتْ مَجَاعَةٌ فِى قَبِيلَةِ بَنِى سَعدٍ ، فَأَعطى مُحمدٌ حَلِيمَةَ جَمَلاً

مُحَمَّلاً بِكُلِّ مَا تَحتَاجُ إِلَيهِ مِنَ الأَغذِيَةِ وَالأَطْعِمَةِ ، وَأَهدَى إِلَيهَا كَثِيرًا مِن الْهَدَايَا . وَبعدَ أَن رَجَعَ مُحمدٌ إِلَى مَكَّةَ بِوَقتٍ قَصِيرٍ أَخَذَتهُ أُمُّهُ لِزِيَارَةِ الْمَدِينَةِ ، وَرُؤيَةِ الْأَقَارِبِ مِن بَنِى النَّجَّارِ . وَأَخذَتْ مَعَهَا جَارِيَتَهَا أُمَّ أَيْمَن . وَاسمُهَا بَرَكَةُ .

وَحِينَمَا وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَخَذَت آمِنَةُ مُحمدًا لِتُرِيَهُ الْمَنزِلَ الَّذِى مَرِضَ فِيهِ أَبُوهُ عَبدُ اللهِ ، وَتُرِيَهُ الْمَقْبَرَةَ الَّتِى

دُفِنَ فِيهَا بَعدَ مَوتِهِ .

وَقَد أَهْدَتْ آمِنَةُ حَيَاتَهَا لِمُحَمدٍ ، وَجَعَلَتْهَا لَهُ وَحدَهُ . وَعَاشَ رَسُولُ اللهِ مَعَ أُمِّهِ عِيشَةً سَعِيدَةً تَحْرُسُهُ رِعَايَةُ اللهِ وَعِنَايَتُهُ ، وَيُنْبِتُهُ اللهُ نَبَاتًا حَسَنًا .

وَبعدَ أَن مَكَثُوا شَهْرًا بِالْمَدِينَةِ أَخَذُوا فِى الاِستِعدَادِ لِلرُّجُوعِ إِلَى بَيْتِهِم فِى مَكَّةَ . وَفِى مُنتَصَفِ الطَّرِيقِ بَينَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ فِى مَكَانٍ يُسَمَّى (الأَبْوَاءَ) مَرِضَتْ آمِنَةُ فَجْأَةً ، وَمَاتَتْ ، وَدُفِنَتْ

فِى ذٰلِكَ المَكَانِ . فَصَارَ مُحمدٌ يَتِيمَ الأَبِ وَالْأُمِّ ، وَعُمْرُهُ سِتُّ سَنَواتٍ .

وَيُمْكِنُكَ يَا بُنَىَّ أَن تَتَخَيَّلَ مِقدَارَ مَا أَحَسَّ بِهِ مُحمدٌ ــ الغُلاَمُ الصَّغِيرُ السِّنِّ ــ مِنَ الْحُزْنِ بَعدَ مَوْتِ أُمِّهِ العَزِيزَةِ . فَهُوَ الآنَ يَتِيمٌ ، لاَ أَبَ لَهُ يُفَكِّرُ فِيهِ ، وَلاَ أُمَّ تَعْطِفُ عَلَيهِ . وَقَد رَجَعَتْ بِهِ جَارِيَةُ أَبِيهِ أُمُّ أَيمَنَ ، وَهِىَ حَزِينَةٌ كُلَّ الْحُزْنِ ، بَاكِيَةٌ لِمَوْتِ سَيِّدَتِهَا ، وَتَرْكِ ابنِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ . وَبَعدَ أَن مَاتَت

أَمُّهُ أَخَذَهُ جَدُّهُ عَبدُ المُطَّلِبِ مَعَهُ فِى بَيتِهِ ، وَاهتَمَّ بتربِيَتِهِ ، وَأَحَبَّهُ أَكثَرَ مِن حُبِّهِ لِأَولاَدِهِ . وَكانَ لِجَدِّهِ سَجَّادَةٌ يَجلِسُ عَلَيْهَا فِى الكَعْبَةِ . وَلِاحتِرَامِهِ لَم يُسمَحْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَطفَالِ بِالْجُلُوسِ عَلَيهَا . وَكَثِيرًا مَا كَانَ مُحمدٌ يَأْتِى وَيَجْلِسُ مَعَ جَدِّهِ عَلَى السَّجَّادَةِ ، فَيُحَاوِلُ أَعَمامُهُ أَن يَأْخُذُوهُ بَعِيدًا ، وَيَمنَعُوهُ مِنَ الجُلُوسِ عَلَيهَا ، فَيَقُولُ لَهُم عَبدُ المُطَّلِبِ : اُترُكُوا اِبنِى مُحمدًا

جَالِسًا ، وَلاَ تُضَايِقُوهُ .

وَمُنْذُ فَقَدَ مُحمدٌ أَبَاهُ وَأَمَّهُ ، وَحُرِمَ حُبَّهُمَا وَعَطْفَهُمَا وَعِنَايَتَهُمَا — اِزْدَادَ حُبُّ جَدِّهِ لَهُ ، وَعوَّضَهُ كُلَّ مَا فَقَدَهُ مِنْ حُبٍّ وَعَطْفٍ وَعِنَايَةٍ ، فَكَانَ مُحمدٌ اليَتيمُ سَعِيدًا بِجَدِّهِ . وَقَدِ اعتَادَ الْجَدُّ أَنْ يَلْعَبَ مَعَ حَفِيدِهِ ، لِيُدْخِلَ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ فِي قَلْبِهِ ، وَلٰكِنْ لَمْ تَدُمْ هٰذِهِ السَّعَادَةُ مُدَّةً طَوِيلَةً ، لَم تَدُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَينِ ؛ فَقَدْ مَرِضَ جَدُّهُ ، وَقَبلَ أَنْ يَمُوتَ سَأَلَ عَن

حَبِيبِهِ مُحَمدٍ ، وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ .
وَحَاوَلَ بكُلِّ قُوَّتِهِ أَنْ يَلْعَبَ مَعَهُ كَمَا تَعَوَّدَ
مِن قَبلُ ، وَلٰكِنَّ آلامَ الْمَرَضِ قَدِ
اشْتَدَّتْ ، وَاهتَزَّت يَدُهُ ، فَلَم يَستَطِعْ أَنْ
يَلعَبَ مَعَهُ . فَأَخَذَتِ الدُّمُوعُ تَتَسَاقَطُ
عَلَى خَدَّيِ الْجَدِّ الكَبِيرِ ، وَعَانَقَ
مُحَمَّدًا ، وَقَبَّلَهُ وَهُوَ يَبْكِي . وَفِي تِلْكَ
اللَّحظَةِ دَخَلَ أَبُو طَالِبٍ حُجْرَةَ أَبِيهِ عَبدِ
الْمُطَّلِبِ ، فَرَأَى أَبَاهُ يَبْكِي ؛ لِأَنَّهُ سَيُفَارِقُ
مُحمدًا ، وَلَنْ يَلعَبَ مَعَهُ ثَانِيَةً .

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : لِمَاذَا تَبْكِى يَا أَبِى ؟
إِنَّنَا جَمِيعًا نَعلَمُ أَنَّكَ رَجُلٌ شُجَاعٌ ، وَقَد
قَضَيتَ حَيَاتَكَ كُلَّهَا فِى خِدْمَةِ قَوْمِكَ
وَمَوْطِنِكَ . وَكُنتَ بَينَ أَهلِ مَكَّةَ مُحتَرَمًا
مِنَ الْجَمِيعِ . وَقَدْ أَدَّيتَ وَاجِبَكَ بِكُلِّ
أَمَانَةٍ وَإِخلاَصٍ . فَلِمَاذَا تَبْكِى ؟

فَأَجَابَ عَبدُ الْمُطَّلِبِ : إِنَّكَ مُخطِئٌ
يَا بُنَىَّ إِذَا ظَنَنْتَ أَنِّى خَائِفٌ مِنَ المَوْتِ .
إِنِّى أَعلَمُ أَنَّ المَوتَ حَقٌّ ، وَأَنَّ كُلَّ إِنسَانٍ
سَيَذُوقُهُ . إِنَّنِى أَبْكِى مِن أَجلِ مُحمـدٍ

اليَتِيمِ الصَّغيرِ ؛ فَقَد حُرِمَ أُمَّهُ بَعدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وَسَيُحرَمُ جَدَّهُ بَعدَ لَحظَاتٍ . فَمَاذَا سَيَحدُثُ لَهُ بعَدَ مَوْتِى ؟ وَمَنْ سَيُرَبِّيهِ تَربِيَةَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ مِن بَعدِى ؟ فَأَجَابَ أَبُو طَالِبٍ :

إِنَّ كُلَّ عَمٍّ مِن أَعْمامِهِ سَيُعنَى بِهِ كُلَّ العِنَايَةِ . إِنَّنَا سَنُحِبُّهُ مَحَبَّتَنَا لِأَطفَالِنَا ، وَسَنَحْمِيهِ بِأَرْواحِنَا وَسُيُوفِنَا . أَرجُو أَن تَستَرِيحَ يَا أَبِى . وَلاَ تُفَكِّرْ فِى هٰذَا .

فَأَوصَى عَبدُ المُطَّلِبِ ابنَهُ أَبَا طَالِبٍ

وَقَالَ لَهُ : خُذْ مُحمدًا عِندَكَ ، وَرَبِّهِ مَعَ أَولاَدِكَ . إِنَّهُ بعدَ مَوْتِى سَيُحِسُّ بِاليُتمِ . لَقد فَقَدَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَجَدَّهُ . فَكُنْ لَهُ أَبًا وَأُمًّا وَجَدًّا . وَمِنْ أَعْمَاقِ قَبْرِى سَأَشكُرُ لَكَ كُلَّ شَىْءٍ تَعْمَلُهُ مِنْ أَجلِ مُحمدٍ . هٰذِهِ ... وَصِيَّتِى ... الأَخِيرَةُ ... لَكَ » .

وَبعدَ أَن نَطَقَ بِهٰذِهِ الكَلِمَاتِ أَسْلَمَ عَبدُ المُطَّلِبِ الرُّوحَ لِخَالِقِهِ ، وَمَاتَ ، مُتأَكِّدًا أَنَّ حَفِيدَهُ مُحمَّدًا الْيَتيمَ سَيَجِدُ كُلَّ عِنَايَةٍ مِنْ بَعدِهِ .

وَكَانَ مُحمَّدٌ العَزيزُ بِجَانِبِ جَدِّهِ ، وَهُوَ يُسْلِمُ رُوحَهُ لِلّٰهِ.

وَقَد بَكَى مُحمدٌ عَلَى جَدِّهِ بُكَاءً كَثِيرًا ، وَأَثَّرَ مَوْتُهُ فِيهِ كُلَّ التَّأْثِيرِ .

وَقَد حَافظَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى الوَعْدِ الَّذِى وَعَدَ بِهِ أَبَاهُ ، فَأَحَبَّ مُحمدًا كُلَّ الْحُبِّ ، وَجَعَلَهُ كَأَحَبِّ أَبنَائِهِ إِلَيهِ ، وَأَخَذَهُ مَعَهُ أَيْنَما ذَهَبَ. وَاعْتَادَ مُحَمَّدٌ أَلاَّ يَنامَ إِلاَّ مَعَ عَمِّهِ فِى فِرَاشِهِ ، وَلاَ عَجَبَ ؛ فَهُوَ أَخٌ شَقِيقٌ لِعَبدِ اللهِ وَالِدِ مُحَمَّدٍ .